

ذكر حديثاً يدور حول هذا المعنى ، مما لا أن يؤيد بذلك كما دعوا الخطيرة إلى تقديس أناس بمدوا عن الحق فيها سجله عليهم التاريخ من أعمال . ومما نحمد الله عليه أن الحق - في هذه الناحية - واضح البليغ لا يحتاج إلى برهان

وقبل أن نعرض ما ذكره الأستاذ قطب في شأن مساوية واصحابه ، نذكر أن الأستاذ شاكر قد أثار هذه العاصفة رحبته الوحيدة ، أن كل صحابي وأى الرسول وسمع منه قد اكتسب مكانة تحرم على كل إنسان أن ينتقد أخطائه أو يظهر أغلاطه ، « فإذا أخطأ أحدهم فليس يحمل لم ولا لأحد ممن يمدم أن يحمل الخطأ ذريعة إلى الطعن عليهم » - كما ذكر الكاتب فحسباً لآزاع من أقرب طرقه ، تبدأ بتحديد معنى الصحابي ، وهو - في أبسط حدوده - يطلق على كل إنسان حصلت له رؤية الرسول أو بحالته ، فجميع من سمعوا بمشاهدته صلى الله عليه وسلم في حياته بمد الإسلام صحابة يشرفون بهذه الصفة المباركة ، حتى عبد الله بن أبي راس النفاق بالمدينة ، فقد قال الرسول لمن هم بقتله : « معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ، فبعد الله من أصحاب محمد كما ينطق الحديث ، فليت شمري أينطبق الحديث القائل لا تسبوا أصحابي على جميع من سعد بالصعبة ، أم يخص من باعوا أرواحهم وأمرالم لله من المؤمنين الصادقين ؟ لا بد أن نكون الطائفة الأخيرة هي المقصودة دون أدنى تردد أو نزاع ، فكل من تمسك بأخلاق الإسلام من أصحاب الرسول وشهد تاريخه بمروده وصدقه فهو موضع التجارة والتبجيل ، ولا يجوز لمسلم يدين بالإسلام أن ينتقصه في شيء ، وكل من حامت الشبهات فوق تاريخه فهو موضع الملامة والنقد لأن الناس سواسية أمام الإسلام ، ولا فضل لعربي على أجنبي بغير تقواه ، والإسلام لا يقدر غير البررة الخالصين

ومعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا من الدين والجهاد بمنزلة واحدة ، ففهم من أسلم في فجر الدعوة منذ أعلنها الرسول وقطع السنوات المتتالية في الجهاد والجلاد ، وفهم من أسلم قبيل الفتح أو بعده والسيف وصلت إلى رأسه ، وفهم من بذل الكثير من الدم والمال وادخر القليل ، وفهم من تقاسم ولم يبذل شيئاً من دمه وماله ، ومن الظلم البين أن ترتفع بهؤلاء

بين شاكر وقطب :

لا تسبوا أصحابي

للأستاذ محمد رجب البيومي

للأستاذ محمود محمد شاكر منزلة كبيرة لدى ، فإنا أمهد كاتباً قوى الأسلوب ، وسين المبارة ، وأعرفه أياً مخلصاً يتدفق فيرة على الإسلام ، ونصبياً لأفئذاه الأبطال ، لذلك أقبل على قراءة ما يديبه يراعه المؤمن في شوق واهتمام . وقد طالمت أخيراً ما كتبه بمجلة (الملمون - العدد الثالث من ٣٨ جادى الأولى سنة ١٣٧١) تحت عنوان لا تسبوا أصحابي ، فوجدت المجال واسعا للخلاف بيني وبينه ، ولم أشأ أن أطوى ما دار بخلدني عن القراءة ، فرأيت أن أناقش الكاتب الكبير فيها سطره راجياً أن يحق الله الحق بكلامته ، فالتقى وحده هدف الكرام السكاتبين ، وفي تليمتهم الأستاذ الجليل

والم من الأوفق أن أبداً بتلخيص الفسكرة التي يدور حولها مقال الأستاذ شاكر ، فأعلم أن الكاتب القائل ينحى باللائمة على الجهاد الداعية الأستاذ سيد قطب - وإن لم يصرح باسمه - إذ تعرض في كتابه « المدالة الاجتماعية في الإسلام » إلى أناس مدم الأستاذ شاكر من أفاضل الصحابة ، وقد خصهم صاحب الكتاب بما لا يليق في مذهب الأستاذ شاكر من اللقد والتجريح ، وهو بذلك يخالف ما اجتمع عليه الرأي السائد من تقديس أصحاب الرسول « إذ لا سبيل لأحد من أهل الأرض ما ضيهم وحاضرهم أن يلحق أقل أصحاب محمد ، مها جهد في عبادته ومها تورع في دينه ، ومها أخلص قلبه من خواطر السوء في سره وعلايته ، كما قال الأستاذ الجليل

وقد بدأ الأستاذ شاكر مقاله بحديث الرسول « لا تسبوا أصحابي ، فواللهي نفسي بيده ، لو أن أحدكم أتفق مثل أحد ذهباً ، ما أدرك مدأحدم ولا نصيفه » واندفع في سياق منبري يسرد الأدلة الخطابية ، ويستثير النوازع الماطفية ، ويستشهد بقول الرسول « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » كما

يمثلون الخلافة الدينية التي تنفد بالقرآن وتهدى بالسما ، وأوا من جرائم الخلقية ، ورفهم المقيت ، ولهوم الماغن ما بينضمم في الخلافة والإسلام ، فقام الأستاذ سيد قطب بدافع عن دينه ، وبين أن الإسلام لا يعترف بخلافة بمد على ، وقد نطق بالحق المؤيد بالتاريخ حين أعلن أن معاوية أول خليفة نحل من قيود الإسلام ، أفنقول له بمد ذلك أمد تهجعت على أصحاب الرسول وخلفت هدى النبوة ، أم يريد الأستاذ شسا كر أن يفهم الناس أن معارية وأشياءه يمثلون الإسلام بما ارتكبوه من رشوة وخذاع ومالأة ؟ لو أن الأمر كذلك لبعد الناس عن الإسلام ، وابرى، المسلمون من دين يبيع خلفائه الخديمة والمسكر والإرهاب وإقامة القصور واحتكار الأموال والضياع ؟

ولقد كان الأخرى بالأستاذ شا كر أن ينقد ما ذكره الأستاذ قطب عن معاوية نقداً تاريخياً فيبين أن الوقائع التي ذكرها في كتابه الخالد غير صحيحة ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك ، إذ أن الأستاذ قطب قد نقل وقائمه عن كتب التاريخ ولم يحترهما من عنده اختراعاً ، وهي - رغم ثورة الأستاذ شا كر - معروفة لدى السكبير والصغير

فن ذا الذي يشكر أن معاوية حين سير الخلافة ملكاً مذكراً في أمية لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وحى الجاهلية ومن الذي يشكر أن أمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها ، وما كان الإسلام لها إلا رداء تلبسه وتخلعه حسب المصالح واللايات ، وهذا باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي أحاطه الأستاذ قطب في كتابه بحياج من الهبة والإجلال ، وجعل عهده بقية من عهود الخلافة الراشدة ، وإشعاعه منيئة تنير الطريق ، وقد بسط الكلام عن هذا الخليفة العظيم في أربع صفحات طوال

ومن الذي يشكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه على المسلمين مدفوعاً إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام ؟ ومن الذي يشكر أن معاوية قد أنهى المدصر الأخلاق في سراهه مع على وفي سيرته في الحكم بمد ذلك إقصاء كاملاً ، لأول مرة في تاريخ الإسلام ، وقد سار في سياسة المال سيرة غير طاق ، فجعله للرشوة والهمى وشراء الضمار في البيمة ليزيد

جميعاً إلى منزلة واحدة ، بل على التسارح أن يهيء لكل إنسان منزلة وفق ما أسلف من أعمال لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ، ٩٥ النساء

وإذا كان الأستاذ شا كر يرى أنه لا يجوز لأحد من الناس أو من الصحابة أن يحمل الخطأ ذرمة إلى الطمن في الخطئين ، فإذا بفعل في الصحابة إذ أحلوا لأنفسهم ما حرمه عليهم الآن ، نقطاً بعضهم بعضاً ، وطمن فريق منهم على فريق آخر بنارته ، أفيكوتون بذلك قد خالفوا الحديث النبوي كما فهمه الأستاذ شا كر .. أم عرفوا أن الصحبة وحدها لا تنصم من النقد واللام ؟

أعد أتضح بجلاء أن الحديث الذي عنون به الأستاذ مقالته لا يدرج على جميع من سعد بالصحبة ، بل يختص الطائفة الناضلة التي لم تترك أخلاق القرآن في موقف ، أو تنبذ روح النبوة في صنيع ، وجميع من سار على النهج القويم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود موضع القدوة والاحقذاء من المسلمين ، وحرام على كل مؤمن أن يحوم على أحد منهم بطمن أو تجريح ، أما الذين تأخر بهم الركب عن اللحاق بالإسلام في مشرق شمس ، فيجب أن ننظر إلى صحف أعمالهم ومواقفهم في الحياة ثم نحكم عليها في ضوء القرآن والنبوة ، وهذا ما فعله الأستاذ سيد قطب ، فقد نظر إلى أعمال معاوية وطائفة من بني أمية نظرة إسلامية صادقة ، فوجد خليفة المسلمين قد بمد عن روح الإسلام في أكثر أعماله ، وساعده في هذا السبيل فريق باع آخرته بدنياه ، فرأى أن يقول كلمة الحق في أناس تجاوزوا حدود الله في أعمالهم ، والأستاذ قطب لم يرد بكتابه أن يكون مؤرخاً راوياً ، فالرسالة التي يضطلع بها الآن أعظم من أن تنحصر في حدود التاريخ ، ولكنه ينادى بالرجوع إلى أحكام القرآن ، وهدى النبوة ، وقامم الإسلام ، وقد عرف أن الخلافة الإسلامية قد فقدت معناها الديني بمد مصرع على ، وجاء من الخلفاء من أحلها إلى ملك عضوض ، تبد عنه روح الإسلام في أكثر نواحيه ، وقد ظن كثير من الناس أن هؤلاء الخلفاء الرسميين من لدن معاوية

بجانب مطالب الدولة والفتوح بطبيعة الحال

هذه وأمثالها أمور مسلمة في التاريخ لا يستطيع الأستاذ شاكر أن ينكرها بحال . ونحن نعجب كثيرا حين نجد في مقاله بلبس مسوح الوعظ والإرشاد فيقول : يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم . يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . أفهذه الآيات وأمثالها يستطيع الأستاذ شاكر أن يسكت لسان التاريخ

كنا ننتظر من الأستاذ أن يتقد هذه الحوادث التاريخية نقداً موضوعياً يحدد على ضوءه موقف معاوية من تعاليم الإسلام ولكن الأستاذ لا يستطيع أن يأتي لمعاوية بتاريخ جديد فذهب يدافع عنه من باب آخر ، فنقل عدة روايات تدل على أنه حسن الصلاة !! وأنه أوتر بواحدة ! فقال ابن عباس إنه فقيه !! وأن الرسول قد قال : اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقره العذاب !! وسارفي هذا الضمار خطوات أنمبته كثيرا . والمعجب أنه يجمل ما ذكره الأستاذ قطب من تاريخ معاوية وروايات متلفة من أطراف الكتب ! وهي ما نتفق به جميع كتب التاريخ ، أما ما ذكره الآن من فضائل معاوية فليس من قبيل الروايات المصنوعة ، وإن اصطيد من مجمع الزوائد وأمثاله من مراجع الأستاذ ، فهذا منطلق يقع الباحثين !

وقد نتجبت كثيرا وأنا أقرأ قول الأستاذ شاكر من قطب « إن كان يعلم أنه أحسن نظرا ومعرفة بقريش من أبي بكر حين ولي يزيد بن أبي سفيان وهو من بني أمية ، وأنه أنفذ بصرا من عمر حين ولي معاوية فهو ما علم ! » كأن تولية عمر لمعاوية كافية لأن نعو أخطاه فلا يأخذه مؤرخ بعلام ! ونحن نقر أن معاوية كان حسن السيرة على عهد عمر فولاه أعمال دمشق ، ولكنه قلب الجن لتعاليم الإسلامية بعد مصرع عثمان فلم تنفعه تزكية الفاروق في شئ ، وعمر رضى الله عنه لا يعلم الشيب حتى تكون تزكيتة لإنسان ما في عهده ممتدة إلى جميع أعماله مدى الحياة ! هذا هو معاوية ، أما أبو سفيان وهند وزوجه وعمر و ابن الماص فلا أهم أن الأستاذ قطب قد تجاوز الحق فيما كتب عنهم من تاريخ !! فجميع المسلمين يعرفون أن أبو سفيان حارب الإسلام حربا لا هوادة فيها ، ولم يدخل في حظيرته إلا بعد أن تفررت قلبه الإسلام ! وأن زوجه هند قد ولت في الدم حين

أخذت كبد حمزة بين فكيفها ، ولا كتبنا لنا كلها فلم تستعلم ، وأنها قالت من زوجها حين أسلم : اقتلوا الخبيث الهندس الذي لا خير فيه ، قبح من طليمة قوم . هلاقتهم ودافعتم عن أموالكم؟ ثم أسلمت بعد ذلك أيضا !! وأن ابن الماص قد طاون معاوية في خصامه مع علي جرياً وراء مآرب يدخرها لنفسه دون نظر إلى صالح الإسلام والمسلمين !! هذا كله ما ذكرته كتب التاريخ ، أفيلام الأستاذ قطب إذا ذكره في مرض الدفاع عن الإسلام وتبرئته من آثام الذنبيين ، أم يريد الأستاذ شاكر أن يؤخذ الإسلام بجرم أبنائه ومدعيه ، حين يحتضن أناساً لم يتمسكوا بأهدابه وقواعده ، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا في ذلك الشأن ولقد تمدت أن أكون واضحاً صريحاً حين تكلمت عن

المراد « بالصحابي » فتحدثت مما يفهم من مادة الكلمة دون نظر إلى ما دار حولها من اختلاف لدى الأصوليين ، إذ هم يذكرون عدة تعاريف تتقارب وتتباعد دون أن تلتقى في ناحية واحدة ، ولو تمسك كل إنسان بتعريف معين لتضارب القول ، واتهمت شقة الخلاف ! على أن الصحبة يعدلونها للنفوس تدل على الملازمة ، فصاحبك هو الذي يطيل المكث معك أكثر من سواه ، وصحابة الرسول بالمعنى الشرعي والنفوس معاً أكثر الناس ملازمة له ، وليس منهم معاوية وأبوه وأمه ونجده على أي حال ، ولن أطيل هنا القول فيما ذكره الهدون في قول الرسول خير الناس قرني ثم الذين يلونهم - وقد سبق في صدر هذا المقال - إذ أن مفسري الحديث قد أجمروا على أن العبارة بالجموع لا بالجميع ، فقد يوجد في القرن العشرين من هم أفضل بكثير من بعض من طاصر الرسول العظيم وإذن فليس للأستاذ شاكر أن يتمسك - بهذا وأمثاله - كدليل يستند إليه في دعواه ، وهو من البدهاة بما كان لا يحتمل التردد والإمهاب

إن من القسوة العنيفة أن يقول قائل عن الأستاذ سيد قطب إنه قد بعد في كتابه عن منهج الإسلام ، وهو المعادية البصير الذي تشرب روح الإسلام ، وفهم دقائق التشريع ، ورسم خطوطاً واضحة يترسمها الشباب المتوثب للنهوض والمزعة في ظلال الدين الحنيف ، وكان يجماده اليمون رائد جيل ، ومنقذ نفوس ، وداعية إصلاح

أهلت أشرف أو أجل من الذي يبني وينشيء أنفساً ردة قولاً

محمد رجب البهرسي